أغانى بليتيس

— ١ —

حياة بليتيس

قال بيرلوتى :

ولدت بليتيس فى مستهل القرن السادس قبل الميلاد ، فى قرية قائمة على شطوط ميلاس ، نحو شرق بانقيلى . وهذه بلدة محزونة واجمة ذات كمدة من آجامها اللفيفة ، تعلوها جبال طوروس بكثبان جسام تتفجر من بينها الينابيع . وعلى متون الهضاب بحيرات مالحة رحبة . أما الوديان فكانت مليئة بالسكون

وكانت بليتيس بنت رجل يونانى وامرأة فينيقية . ويستبان أنها لم تعرف أباها ، لأنه لا يلمح فى ذكريات طفولتها شىء من ذكره . فربما كان ميتا قبل مجيئها الى الوجود . ولذلك أسمتها أمها باسم فينيقى من بعده

فعلى هذه الارض الخالية كانت تعيش عيشة ساكنة مع أمها وأخواتها ، يسكن قريبا منها أتراب لها صرن صديقاتها . وفوق منحدرات طوروس النائية كان الرعاة ، كل مساء ، يغنون على الرباب لقطعانهم

ومنذ يصيح الديك ، فى الصباح ، كانت تقوم الى مربط البهائم فتوردها الماء ثم تحلب ألبان الشياه . وإن حبسها المطر فى النهار كانت تظل فى الجينيسه (١) فتغزل بعرناسها الصوف . وكانت اذا صفا الوقت تركض الى الجنائن فتلعب مع لداتها الف لعبة كما تحدثنا عنها

وكانت بليتيس تؤامن بالجنيات وتوق لهن بحرارة ، فتقدم اليهن الذبائح حتى تكاد تكلمهن ، وكما يظهر ، أنها لم تراهن أبدا ، وإنما تتعلل بأن شيخا رآهن من قومها

وأصيبت فى آخر حياتها الرعوية بغرام ملأها حزنا ، نعلم عنه القليل ، وتكلمت عنه طويلا . وقد انقطعت عن انشاده منذ صارت بئيسة . وحين صارت أما تركت

---

(١) بيت الحريم عند اليونان

طفلتها وهجرت بانفيلي لأسباب مكتومة ، ولم تعد أبدا الى أرض ولادتها

ثم لم نلبث أن نجدها فى ميتيلين ، فقد أتت من طريق البحر بشواطىء آسيا الجميلة وكانت فى السادسة عشرة كما تدل بحوث المسيو هيم ، الذى اكتشف بعض العلم فى تاريخ حياة بليتيس من بيت شعر يشير إلى موت بيتاغوس (١)

وكانت جزيرة ليسبو ، فى ذاك الزمان ، بؤرة العالم ، فى منتصف الطريق بين آتيك الزاهية وليديا الجميلة . وكانت قاعدتها أسطع من أثينا وأفسد من سارد : تلك هى ميتيلين المشيدة على مشارف يحف بها البحر تقابل شطوط آسيا . ومن أعالى المعابد يرى فى الافق خط أثارينه الابيض وهى ثغر بيرغام

وشوارع هذه المدينة ضيقة تغص بالناس : فمن معشر عليهم برود موشحة ، وآخرون بأقمصة مطرزة أرجوانية . ومن فئة بنعال صفر لهم لباس يتدلى مؤخره ، يسحبونه وراءهم على التراب . والنساء يدلين من آذانهن أقراطا من اللؤلؤ منضود على حلق من الذهب كبير ، وفى معاصمهن أساور سميكة من الفضة يعلوها بروز . والرجال بذاتهم ، يتضوع العطر من شعورهم اللامعة . وكانت أكعاب اليونان عارية تحيط بها خلاخيل ذات اجراس لطيفة ، ومنها ماهو ملتو كالثعبان يخفق مع الاقدام . أما نساء اسيا فلهن خلاخيل واسعة رقيقة تنزل الى وجوه الخفاف . وكان المارة يجلسون جماعات أمام دكاكين يباع فيها الشتات . كالبسط الملونة القاتمة ، واللبد المرقم بخيوط مذهبة ، وجواهر الكهرباء والعاج . فحياة أسواق ميتيلين وبيوتها لا تنقطع ولو دب الفجر فى الظلام ، فليس عندهم وقت يسمى ساعة متأخرة من الليل لا يسمع فيها من الابواب المفتوحة ، أصوات القصف والمزاهر ، وجلبة الرقص وصياح النسوة وبيتاغوس ، نفسه ، شاء أن يصلح قليلا من هذا الفجور الدائم ، فوضع سنة منع فيها الزامرات الصغار أن يغنين فى مآدب ليلية . ولكن هذه السنة ، كغيرها من اللواتى يدعين تغيير مجرى العادات الطبيعية ، فاتها ما كان يجرى دون الستور

وإن بيتة أزواجها يقضون لياليهم بين الخمر والراقصات ليحتم القدر على زوجاتهم أن يتقاربن وأن يجدن بينهن ، عن عزلتهن ، سلوى . فأنى لهن من ذلك التدله بهذه

---

(١) أحد الحكماء السبعة من الاغريق ولد فى ميتيلين (٦٥٠ - ٥٠٩) قبل الميلاد

الاهواء اللذيذة ، التى وضع أسماءها يونان القديم . وكانت ، رغم ما يخالج الرجال شكل منها أهواءاً صادقة أكثر منها عهرا وفضيحة

وكانت سابفو إذ ذاك فاتنة . عرفتها بليتيس فهى تتكلم عنها باسم بسابفو الذى كانت تعرف به فى ليسبو ، ولا ريب فى أن هذه المرأة المعجبة هى التى علمت البانفيلية الصغيرة من الغناء بالقوافى والأيحاء إلى الأجيال الآتية أن يحتفظوا بذكريات أحبابهم

ومن النكد أن ترى بليتيس تذكر نزراً عن هذه المرأة التى لا يعلم من خبرها شىء ، فأسفاً ! على وجهها الجميل الذى أوحى إلى بليتيس عذب الفنون . لكن بليتيس تركت لنا مرائى كثيرة بكت فيها صديقة لها شابة فى سنها ، عاشت معها ، اسمها منازيديكا ونحن نعلم اسم هذه الفتاة من قبل ، من بيت شعر لسابفو تصف فيه جمالها الرائع . ولكن فى هذا الاسم ريبة ويبرغ أوشك أن يفكر أنها تسمى منايس فالآغانى التى ستتلى عما بعيد تحمل على هجر هذا الافتراض . ومنازيديكا تظهر أنها كانت فتاة رقيقة حلوة ، من أحدى الأناسى الفاتنين الذين رقوا حتى عبدوا ، تعظم محبتهم مازهدوا عما يستحقون

والحب الصرف يتأبد ، أنما حب بليتيس لها دام عشر سنين . وسننظر اليه كيف تغير بخطيئة بليتيس ، وللحب غيرة تقع على كل شىء .

ولما شعرت بليتيس ألا شىء يمسك بها فى ميتيلين إلا الذكريات المحزونة ، عزمت على سياحة ثانية : جاءت إلى قبرص ، وكانت جزيرة يونانية فينيقية مثل باقيلى ذاتها ، فبعثت فى ذاكرتها منظر بلادها الأولى .

وهناك بدأت بليتيس حياتها المرة الثالثة ، بحالة يصعب جداً تصديقها لولا تذكر ما كانت عليه الشعوب القديمة من عبادة الحب وبالغ اللذات . فغوانى آما ثونت (١) لم يكن كغوانينا مخلوقات منحطات منعزلات عن كل بيئة دنيوية ، بل كن فتيات ينتمين إلى أحاسن عائلات المدينة . منحتهن آفروديت سحراً وملاحة ، فكن يقدمن لعبادتها جمالهن كالقرابين . فكل بلدة تملك مثل قبرص هيكلا مترعاً بالغوانى كانت تعنى مثلها ، باحترام كثير ، بهذى النساء .

---

(١) بلدة قديمة فى قبرص اشتهرت بعبادة أودونيس وفينوس

وكان للجمال عندهم سيرة غلباء فسيرة « فرينى » (١) الفريدة ، مثلما جاء لنابها آثينى (٢) قد أوجدت فينا نحو بها فكرة احترام . ولم يكن حقاً أن إيبريد (٣) كان بحاجة أن يضعها عارية ليعطف عليها حكام الآريوباج (٤) . ولكن جريمتها كانت كبيرة فانها قتلت .

ودفع هذا الخطيب عنها نزق أعلا نبيصها وكشف عن نهديها الكاعبين، واستماح القضاة الشفاعة : « بألا يثقوا بالا لهة ووحى أفروديت الى الموت »

وكل الغوانى كن يخرجن متلفعات بمآزر من الحرير رفيعة يرى منها كل تقاطيع أجسامهن البضة . ولكن فرينى على العكس ، كانت عادتها أن تستر حتى شعورها بثوب كبير يلبسه نساء تانغاز (٥) ولم ير أجنبى ساعديها ولا كتفيها ، ولم تبدالتة تستحم بير كة الحمامات العامة . ولكن حادثا غريبا جرى ذات يوم : ذلك انه كان يوم الأعياد فى إيلوزى (٦) فحضره عشرون الف نفس أتوا اليها من كل بلاد اليونان فكل هذا الجمع كان على الشاطىء حين تقدمت فرينى إلى الموج فخلعت ثوبها، وحلت زنارها ونزعت عنها القميص ، ثم حلت شعورها ودخلت فى الماء وكان بين الناس براكزيتيل الذى اتخذ من جسم هذه الآلهة الحية تمثالا لأفروديت دوكنيد وآبيل (٧) الذى ظنها الناديومين.

إن هذا شعب عجيب يرى الجمال العارى فلا يهيجله هزءا ولا خجلا !

تلك هى سيرة حياة بليتيس التى أخذت بسحرها . وقد أحببت صديقة مناز يديكا إذ كنت أترجم هذه الأغانى الدقيقة ولا ريب أن حياتها كانت عجيبة وآسف انه لم يتكلم عنها من قبل كما يجب وإن المؤلفين الأقدمين ، الذين عاشوا بعد موتها لم يعلموا عنها

---

(١) غانية كان يتخذها النحات براكزيتيل مثالا لفينوس

(٢) كاتب يونانى من العصر الثالث الميلادى ولد فى مصر.

(٣) خطيب يونانى شهير معاصر لديموستين قتله آنتيباتير

(٤) المحكمة العليا بأثينا

(٥) بلد بين اتيك وبيوتى

(٦) بلد فى اتيك

(٧) مصور يونانى مشهور صور الاسكندر

إلا نزرا . وقد سطر على أفكار هافيلوديم مرتين، ولم يكرر حتى اسمها . وانى أراهن رغم شائبة سيرتها ، أن يستطيع أن يجد المرء السرور فى تفاصيل تقدمها هى لنا عن الحياة التى عاشتها كغانية ، لقد كانت غانية ، وليس فى ذلك من بأس و أغانيها الاخيرة تشعر بانها جمعت الى إلهامات الفضيلة ضعة ووهنا ولكنى لا أود أن أعلم ما فضيلتها . فقد كانت تقية دينة ظلت محبة للهيكل طيلة ما كان يسر أفروديت أن تمد بشباب أشد عابداتها الصالحات . وقالت إنها انقطعت عن الكتابة يوم انقطعت عن أن تكون معشوقة و يصعب أن تقبل أغانى بانفيلى بانها كتبت حين كانت فيها فكيف تسنى لراعية صغيرة على الجبال أن تعلم وزن هذه الاشعار حسب القوانى الصعبة من اللسان الايونى ؟ فاقرب الى الحقيقة أن بليتيس لما هرمت كان لها سرور أن تنشد لنفسها ذكريات طفولتها البعيدة . وانا لا نعلم شيئا عن الزمن الاخير من حياتها . ونجهل حتى فى أية سنة ماتت

أما قبرها . فعثر عليه المسيو . ج هيم فى باليو - ليسو على حافة طريق قديم ، غير بعيد عن خرائب آما ثونت . وهذه الخرائب أوشكت أن تبيد منذ ثلاثين عاما . وربما كانت حجارة البيت الذى عاشت فيه بليتيس برصف اليوم شواطئ بور سعيد . أما القبر ، فكان تحت الرغام ؛ حسب عادة الفينيقين وقد أفلت من أيدى لصوص الكنوز

دخل اليه المسيو هيم من بئر ضيق ملآن ترابا . فصادف فى أسفله حائطا فيه باب عالجه حتى كسره ، فاذا قبو رحيب منخفض ـ مفروش ببلاط من الكلس ولها أربعة جدران مغطاة بصفائح من الانفيوليت الاسود نقشت عليها بحروف كبيرة قديمة كل الاغانى التى ستقرأ شيئاً منها : ماعدا الثلاث كتابات القبرية التى اكتشف بواسطتها الضريح

هناك كانت تبدأ صديقة منازيديكا فى تابوت من الفخار نقش على ظهر غطائه تمثال وجه المائدة الجميل : فشعرها مصبوغ بالسواد وعيناها نصف مفتوحتين مكحولتان كأنما هى رحية ، ووجهها عليه ابتسامة خفيفة كانت تنشأ من خطوط فمها وشفتان لا يعلم سحرهما ، خصتان رقيقتان إحداهما متصلة بالاخرى ، وكأنما هى ساكرة تهم باطباقهما

وحين كشف عن القبر ، ظهرت على الحالة التى وضعتها بها يد تقية قبل أربع وعشرين قرنا . وقنانى عطر كانت تتدلى على الأرض وأحداهن ، رغم هذا الزمن المديد ، ما زالت عطرة . ومرآة الفضة المصقولة التى كانت ترى بليتيس نفسها فيها ، كانت هناك . والمرود

الذى كانت تسحبه بالكحل الأزرق بين أجفانها ، وجدتى مكانه - وتمثال صغير عار لأستارتى .

هذه تجاليد أبدية غالية ماتزال هيكلا عظمياً ، عليها حلى من جواهر الذهب ، مبيضة كالثلج ، ولكنها جد واهنة ، ففي الوقت الذى تمس فيه ، ستحور هشيما .

امثال من اغانى بليتيس

الشجرة

قد تعريت كى أفاخر دوحة ... بجمالى وجسمى العريان
ثم عانقتها بفخذى دلالا ... وتمشت نعلى على الاغصان
وأنا فوقها ، ولكن تقيني ... حائمات الأوراق حر ذكاء
قد جعلت الغصن الندى حصانا ... وترنحت فوقه ، فى الفضاء
سر منى . فرشني قطرات ... سلن منه كلؤلؤ ، فوق صدرى
ويدي عطرت ، وإبهام رجلى ... صار كالورد ، من أزاهر حر
حينما النوحة الجميلة ماست ... من نسيم ، أحست بالروح فيها
فلثمت الغصون ، وهى رطاب ... وشددت الفخذين منى عليها

أغنية رعوية

أنشدينى أغنية رعوية ... وأعبدى بان رب ريح المصيف
أنا أرعى القطيع مثل سلينى ... تحت زيتونة ، بظل لطيف
وسلينى تنام فوق الحشيش ... ثم تغدو ، أو تمسك الصرصورا
أو تلم الازهار والعشب أو تغسل فى السلسبيل وجهاً نضيراً
وأنا أصطفي لمغزلى الأصواف من أظهر الشياة الشقر
وطوال الساعات أغزل فيه ... أو أرى فى السماء تحليق نسر
قد مشى الظل قاصراً فى قمة الزهر اليه ... وحقة الألبان
وأعبدى بان واهب الريح فى الصيف وقولى أغنية الرعيان

كلام الأمم

غسلتنى فى ظلمة البيت أمى ثم فى الشمس ألبستنى إزارى
واذا فى الدجى خرجت لضوء البدر شدت وعقدت زنارى
، نبهتنى : لا تنظرى من كوانا والعبى وارقصى مع الصبيان
واتركى النصح من نساء أبامى وأحذرى من مقالة الشبان
، رب مسى يجىء شخصك فيه يتخطى إليك أعتاب بابك
وسط حفل من عازفين بآنون ومن زامرين حين أصطحابك
، حينما تذهبين ، تلك العشية يا بليتو ، فلى أمر الشراب
قدح للضحى وآخر للظهر وللعيد ثالث كالصاب ،

زكى المحاسنى

ظهر الجزء الاول من

اصل الأنواع

وَنَشْوُهَا بِالْاِنْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ وَحِفْظِ الصُّفُوفِ الْغَالِبَةِ فِي التَّنَاحُرِ عَلَى الْبَقَاءِ

فاطلبه من دار العصور ومن المكاتب الشهيرة